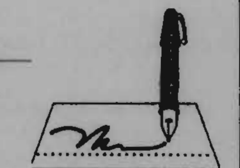


«الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب»

بين أيدينا كتاب له قيمة كبيرة وأهمية قصوى، والسبب أن مؤلفته مستشرقة إيطالية منصفة للإسلام - وهم قلائل - مما أضفى أهمية كبيرة على الكتاب، بالإضافة إلى أن الكتاب يتناول قضية مهمة، ويحمل عنوانًا غاية في الأهمية "**الإسلام.. ذلك المجهول في الغرب**"، للكاتبة "ريتا دي ميلو".

وريتا دي ميليو - من مواليد جزيرة إيسكيا في خليج نابولي - انتقلت إلى إريتريا مع والديها في بداية طفولتها، وهناك أتيحت لها الفرصة للتعرف بطريقة مباشرة على الدين الإسلامي، فصارت تقدره وتحبه.

ريتا دي ميليو متخرجة في "المعهد الشرقي" في نابولي، حيث نالت الشهادة الجامعية في علوم الشرق الأوسط، وعينت في المعهد نفسه بمنصب مساعدة للأستاذين: لاورا فيشا فالياري وأليساندرو باوساني.

انتقلت فيما بعد إلى جامعة روما "لاسابينسا"، وبادرت إلى العمل أستاذةً مساعدةً للمستشرق المشهور فرانشيسكو فابرياني حتى حصلت على الدكتوراه في "التاريخ والنشأة للشرق الأوسط والأدنى"، وقامت بتدريس هذه المواد في أكبر جامعات إيطاليا.

تركت مجال التدريس فيما بعد وأصبحت خبيرة في وزارة الخارجية الإيطالية، وشغلت هذا المنصب لعدة سنوات.





● **المؤلـف: د. ريتا دي ميلو**

● **النـاشـر: رابطة الجامعات الإسلامية، ط١، ٢٠١٠م**

● **عـرض: أسماء عصمت**

HASSAD EL FIKR • العدد (226) ربيع الأول 1432 هـ • فبراير 2011 م

تعيش حاليًا في إريتريا، حيث تقوم بأعمال خيرية وبحوث تاريخية. وقد صدر لها العديد من الكتب كما نشرت مئات المقالات عن الإسلام.

الكتاب يأتي ضمن سلسلة فكر المواجهة التي تتبنى إصدارها رابطة الجامعات الإسلامية، وهذا الكتاب رقم ٢٥ ضمن السلسلة، ويتكون من عشرة فصول.

ومع مقدمة الكتاب نبحر معًا مع كلمات المؤلفة وتعريفها للإسلام، فتقول:

الإسلام

كلمة تضع نفسي أمام واقع لا نهاية له. فأراه ماسة لها ألف وجه براق.

لقد بيت نيّتي، وأرجو من الله التوفيق، على تقديم الإسلام كما أراه من خلال الأغلبية الساحقة من المسلمين، وهم "أهل السنة".

ومع صفحات الكتاب نبحر معًا، ونبدأ الإبحار بالفصل الأول الذي يحمل عنوان: "لمحة عن شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام".

تقول المؤلفة في ذلك الفصل: ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية. في النصف الأول من القرن السابع بعد الميلاد. في منطقة الحجاز التي تقع في الجزء الغربي من شبه الجزيرة. وكانت الأحوال السياسية والاجتماعية في هذه البقعة لها خصوصية تتلخص فيما يلي:

في الجنوب، حيث اليمن، كانت هناك حضارة مزدهرة منذ القدم.

ومن اليمن كان طريق القوافل يتفرع على طول الجزء الغربي من شبه الجزيرة، حتى تصل إلى بيزنطة من جهة. وإلى مصر من جهة أخرى. ومن هناك كانت تستطيع الوصول إلى أوروبا.

وكانت اليمن في الوقت الذي ولد فيه محمد (ﷺ) خاضعة للحكم الحبشي. أما الدين الذي كان سائدًا عند الشعب اليمني فكانت سمته تعدد الآلهة.

وفي معظم أجزاء شبه الجزيرة كان السكان أساسًا من البدو الرحل الذين يسكنون الخيام ويمتهنون مهنة الرعي. وهؤلاء على خلاف الظن لم يكونوا من الهمج. ويشهد على ذلك شعرهم الذي شهد قمة ازدهاره قبل ظهور الإسلام مباشرة.

أما في الحجاز، وهي المنطقة التي تهمنا أكثر في هذه الدراسة، فإن جزءًا صغيرًا من السكان كانوا من المستقرين، وكانوا يتجمعون أساسًا في الواحات. وكان المسيحيون في الحجاز قلة.

أما المكيون. فكان المسيحيون منهم قلة متفرقة، وفي معظم الأحيان لم يكونوا مسيحيين بالمعنى المفهوم للكلمة الآن، بل كانوا موحدين. وهم النصارى المذكورون في القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢).

وقد نسب القرآن النصارى الحقيقيين إلى إبراهيم الحنيف (عليه الصلاة والسلام):

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٣٥).

لقد كان منهم ورقة بن نوفل. وهو ابن خال السيدة خديجة بنت خويلد. الزوجة الأولى لمحمد (ﷺ).

أما دون ذلك فكان الدين السائد في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام هو الوثنية.

كان الدين السائد في الحجاز هو عبادة الأصنام، وكانت عبادة بعض هذه الأصنام محدودة؛ لكونها ملكًا خاصًا لبعض القبائل. أما البعض الآخر فكانت تجري عبادتها على نطاق أوسع. وكان في مكة بيت الله الشهير بالكعبة، ويقول فيها القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦).

وكان في شبه الجزيرة العربية، وبخلاف تقديس الأشجار والنباتات. كانت هناك عبادات للأحجار المقدسة، وهي أحجار متحركة أو متساقطة أو صخور بارزة أو معلقة، تحمل الملامح البشرية، ولم يكونوا يعبدونها لذاتها، وإنما باعتبارها وسيطة أو رمزًا للإله المعبود. فكانوا يقيمون إلى جوارها الاحتفالات الدينية التي تشتمل على القرابين وطقوس للزيارة والمهرجانات والاحتفالات.

أما البدو الرحل فكان لديهم على العكس محراب متنقل، يسمى القبة، وهو نوع من المراكب المقدسة، كانت ترافق القبائل في تنقلاتها السلمية أو الحربية. وكان الكاهن شخصية بين القس والساحر، له تأثير كبير في الناس. فكانوا يستشيرونه ويرجعون إليه في الأمور المهمة.

وكان الرباط الذي يجمع أبناء القبيلة الواحدة

الإسلام حقيقة لها ألف وجه مضيء، وألف سمة لامعة، إنه ناموس رباني، أمثولة للحياة، سمو عقيدة، شعوب وثقافات مختلفة يجمعهم إيمان واحد بإله واحد.



قويًا يستحيل التخلي عنه. وهذا التضامن بين أبناء القبيلة كان يؤدي إلى أن يعتبر العدوان على أحدهم عدوانًا على القبيلة كلها. والحماية التي يضفيها أحدهم على الغريب تعتبر حماية من أبناء القبيلة كلهم، وهكذا دواليك.

كذلك كان أهل مكة يسيرون على سنة باقي أهل شبه الجزيرة، ويعتمدون نظامًا اجتماعيًا قائمًا على القبلية. وأكبر قبائل مكة التي كانت تضم معظم السكان، وبصفة خاصة الأغنياء وكبار القوم، هي قريش، ومنها كلمة قرشيين المعروفة في الإيطالية بـQuraishiti.

وكان لمجلس القبيلة مقر، وله رئيس هو الذي يدير شؤون القبيلة. وقد تكونت وتشكلت مهام توزعت على القبيلة، منها خدمة وصيانة الكعبة، ووفادة الحجيج وسقايتهم وإطعامهم.

وقد وصلت الحياة الاجتماعية في هذه المدينة إلى مستويات أكثر رقيًا من تلك التي شهدتها المراكز الحضرية الأخرى، وخاصة مجتمعات البداوة.

وذلك باختصار كان حال البيئة الدينية والاجتماعية التي ولد محمد (ﷺ) وعاش فيها حتى نزول الوحي وما تبعه من انتشار الإسلام.

• HASSAD EL FIKR • العدد (226) ربيع الأول 1432 هـ • فبراير 2011 م

الرسول طفلاً وشاباً

وتنتقل بنا المؤلفة للفصل الثاني، الذي تتحدث فيه عن حياة محمد (ﷺ) والجانب فوق الطبيعي المرتبط بها. هو جزء لا يتجزأ من الدين الإسلامي، كما كانت حياة المسيح (عليه الصلاة والسلام) ومعجزاته سببًا في نسبة المسيحيين إليه.

وهذا الجانب فوق الطبيعي من حياة محمد (ﷺ) يعتبر واجهة من واجهات الإسلام؛ لأن أقوال الرسول وأفعاله تعتبر - كما سنرى فيما بعد - جزءًا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية. وتقول الكاتبة: وبناءً على ذلك سأقوم بعرض حياة النبي كما قبلها التأريخ الغربي. مع الأخذ في الاعتبار أيضًا محتوى التاريخ الإسلامي كما يعرفه المسلمون.

تبدأ الكاتبة بحياة الرسول في مرحلتي الطفولة والشباب، فتقول: تعني كلمة محمد في اللغة العربية "كثير الحمد"، وقد ولد محمد (ﷺ) بمكة في يوم ١٢ من ربيع الأول (الشهر الثالث من التقويم العربي) من عام ٥٧٠ - ٥٧١م، في أسرة تنتمي إلى قبيلة قريش التي كانت أحوالها الاقتصادية قد تدهورت. تلك الأسرة هي أسرة بني هاشم. ويعرف العام الذي ولد فيه محمد (ﷺ) بعام "الفيل"، وفي الأربعين من عمره بدأت رسالته: في شهر رمضان عام ٦١٠م. وبينما كان يمارس خلوة روحية في غار بجبل حراء بالقرب من مكة، في ليلة ٢٣ أو٢٤ من ذلك الشهر سمع صوتًا يأمره بأن يقرأ. فارتعد محمد الأمّي قائلاً: ما أنا بقارئ. فكرر عليه جبريل الأمر بأن يقرأ. فرد عليه محمد: "ما أنا بقارئ!"، ثم ضمه جبريل إليه بقوة جعلته يظن أنه قد هلك. وقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ - ٥).

وهكذا بدأ نزول الوحي بالقرآن الذي كلف الله نبيه بأن ينشره رسالةً جديدة بين الناس.

وعن محمد الإنسان تقول د. ريتا: عاش محمد في مكة رجلاً وديعًا، يكاد يكون زاهدًا في الدنيا يميل إلى العزلة والتأمل إلى أن نزل عليه الوحي. وكان رب بيت مثاليًا طوال عشرته التي دامت خمسة وعشرين عامًا مع زوجته التي تكبره سنًا. وهي السيدة خديجة. وعلى الرغم مما تعرض له من عداوة واستهزاء من غالبية القوم لما دعاهم إلى الإيمان بعد نزول الوحي عليه بالقرآن، فإنه ظل واثقًا من نفسه ومن نصرة ربه في النهاية. وكان يجيبهم بهدوء ساخرًا من الكفار بآيات من القرآن الكريم تتوعدهم بنار جهنم وبئس المصير.

وفي المدينة تحول إلى رجل سياسي محنك حتى أصبح رئيسًا لدولة فتية. يدافع عنها ويحارب، فلا يشق له غبار. من ذا الذي يستطيع أن يتعرف في هذا الواعظ الوديع الذي كان في مكة على الفارس المقدام الذي يقود جيشه لفتح الجزيرة العربية وما خلفها؟

شبهات وردود

وترد الكاتبة على بعض الشبهات التي حامت حول الرسول، وتشير أيضًا إلى بعض الومضات في حياته فتقول:

- اتهامه بانتحال القرآن:

هنـاك من لا يزال يـرى فـي القـرآن الكريم مجموعة من القواعد الدينية من أصول مسيحية ويهودية، تعلمها محمد (ﷺ) من خلال اتصالاته مع شخصيات كبيرة تنتمي إلى هذين الدينين. قابلهم في مكة وفي المدينة. ومنها لفق محمد القرآن ونسبه إلى الله.

أي أن هؤلاء يرمون محمدًا (ﷺ) بالانتحال. وفي هذا المجال فإنني أطرح الأسئلة التالية: لماذا كان عليه أن يخترع كذبة ضخمة مهولة مثل تلك؟ أيا ترى لجنون العظمة؟ أم حبًا للسلطان؟

في مكة، حيث لم يحقق الكثير من النجاح وواجه العديد من الآلام، لم يكن ليصمد في هذا الصراع الذي كان يبدو بلا مخرج. إلا إذا كان مقتنعًا بصحة رسالته. كيف يستطيع أن يفحم بآيات القرآن الكريم اللاذعة حشدًا من الكاذبين والمنافقين لو كان هو نفسه كاذبًا؟ وإذا كان هو الذي ابتدع هذا الإسلام من بنات أفكاره. فلماذا لم يجعله بسيطًا سهلاً مقبولاً من غالبية قومه؟

كان قومه مشركين وثنيين، وقد جاءهم بدين توحيدي. فلماذا يفرض عليهم صيام رمضان وهو أمر شاق جدًا في شبه الجزيرة العربية حارقة الحرارة؟ ألم يكن حريًا به أن يخفف من الأحكام ليؤمن كثير من الناس به. لو كان هو مؤلف القرآن؟

وكيف أمكن أن يصبح من أصدقائه أشخاص من نبلاء الروح ومن الموهوبين بالذكاء الراقي إذا لم يعتبروه من الصادقين؟ وكيف استطاع. وهو الأمي الذي لا يكتب ولا يقرأ الكتب أن ينتج عملاً على قدر رفيع من حيث اللغة والأدب؟

الناس في وسط شبه الجزيرة وشمالها، قبل الإسلام، سواءً كانوا من البدو الرحل، أو من المقيمين؛ كانوا يعرفون تنظيمًا اجتماعيًا وسياسيًا واحدًا هو القبيلة



اتهامه بالقسوة

يمكن الرد ببساطة على اتهامه بالقسوة: لقد عاقب محمد (ﷺ) بحق أفرادًا ارتكبوا جرائم. وأعداءً عنيدين، مثل الستة من القرشيين الذين هبوا لمعركة مع جيشه الجرار عند فتح مكة، وعاقب كذلك اليهود الذين خانوه... لقد استعمل كل الوسائل التي أتاحها له المجتمع آنذاك للدفاع عن جماعته وتدعيمها. فحارب أولاً بإمكانات متواضعة ودعم قليل؛ حتى لا يسقط أمام الأعداء والمنافقين الذين كانوا يريدون له الخراب.

ولكي يواجه احتياجات جماعته لجأ إلى الغزوات، وقد كانت مشروعة في شبه الجزيرة العربية منذ أزمنة بعيدة. وليست قابلة للحكم عليها بمقاييس أفكارنا المعاصرة.

وإذا كانت الحروب التي قام بها، سواءً وصفت بأنها دفاعية أو هجومية، هدفها نشر الإسلام. فإنها كانت ذات هدف أيديولوجي. وكانت أرحم من الحروب التي نراها اليوم في حياة الإنسانية المعاصرة.

يحلو لبعض الكُتّاب الغربيين، ممن ليسوا

HASSAD EL FIKR • العدد (226) ربيع الأول 1432 هـ • فبراير 2011 م

على علم حقيقي بسيرة الرسول، وممن ليست لديهم قدرة على تحليل مواقفه وتصرفاته، أن يتندروا بالزيجات المتعددة التي عقدها محمد (ﷺ) في المدينة. فيستندون إلى الظاهر، مسلطين الضوء على الجانب الشهواني فيها.

أولئك الكُتّاب لا يضعون في حسبانهم، أو لا يعرفون العادات التي كانت جارية في زمن النبي، حيث كان الزواج يتم بسهولة فائقة. وكذلك ينحلّ من دون أية صعوبات، لقد كان تعدد الزوجات قاعدة عامة في ذلك الوقت.

أما الإسلام الذي نزل على محمد (ﷺ)، كما سنرى فيما بعد، فقد وضع للزواج قواعد وضوابط لم تكن موجودة من قبل. ومع ذلك، ينبغي التأكيد بأن محمداً ظل إلى أن تقدم في العمر - أي حتى الخمسين من عمره - مقتصراً على زوجة واحدة هي السيدة خديجة. وبعد أن ماتت عقد عدة زيجات. ما من شك أن أغلبها كان بهدف تحقيق قرابة تؤلف بينه وبين أقوام من العرب. ومنها ما كان من قبيل الرحمة والعطف على نساء قلبت الظروف مكانتهن الاجتماعية.

إن جميع زوجات الرسول (ومن بينهن الزوجة التاسعة. وكانت يهودية ثم أسلمت) كن أرامل، غير واحدة فقط تزوجها بكرًا صغيرة السن، وهي السيدة عائشة بنت أبي بكر.

ومن ثم يكون محمد قد تحمل مسؤولية وأعباءً أسرية ضخمة، على الرغم من قلة موارده المالية، ومع ذلك لم يستخدم حق الطلاق للخلاص من إحداهن؛ وذلك لأن الإسلام لا يحبذ الطلاق. فمن الآيات القرآنية ما تحذر من الطلاق وتنفر منه في مفهومها الضمني: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٢٩، ٢٣٠).

ولم يختلف سلوك محمد (ﷺ) في هذا عن سلوك الأنبياء القدامى، مثل داود وسليمان وموسى، وغيرهم (عليهم السلام). فلماذا لم يفكر أحد مطلقًا في إدانتهم بسبب تعدد الزوجات؟ ولماذا يوجه هذا الافتراء إلى نبي الإسلام؟

ثم تستعرض المؤلفة بعض الخصال الحميدة للرسول.

بساطة الرسول

على الرغم من السلطة التي اكتسبها في المدينة، لم يكن محمد (ﷺ) في يوم من الأيام رجلاً ثريًا، أو حاكمًا مستبدًا، أو ملكًا متبخترًا بملكه، له قصور مشيدة وثياب فاخرة، لا لنفسه ولا لمن يعول. كان رجلاً معتدلاً مقتصدًا. يحكي التراث أن طعامه اليومي كان يتكون معظمه من بضع ثمرات تمر وكوب من حليب.

ذات مرة، دخل عليه عمر بن الخطاب - الذي سيصبح بعد وفاة الرسول ثاني خلفائه على المسلمين - فوجده على حَصِير. ويروي ذلك عمر: "... تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)، وَإِنَّهُ لَعَلَى

HASSAD EL FIKR • العدد (226) ربيع الأول 1432 هـ • فبراير 2011 م

حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ. وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ. وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا. وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ. فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ. فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ. وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالَ: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ" (البخاري. تفسير القرآن ٤٥٣٢ . مسلم. الطلاق ٢٧٠٥).

وقد بنى لنفسه في المدينة في بداية هجرته إليها مسكنًا بسيطًا له ملاصقًا للمسجد، حيث كان يعقد الاجتماعات مع المؤمنين؛ لإبلاغهم بالوحي الإلهي، ولإقامة صلاة الجماعة، ولإعطاء الأوامر من كل نوع، سواءٌ ذات الطابع الديني، أو المدني، أو الحربي، حيث كان محمد (ﷺ) يستقبل السفارات التي تأتي للتعرف عليه وتقديم الهدايا له. حيث كانت تعيش زوجاته.

أما عن الثروات فكان يستطيع الحصول على الكثير منها، ولكنه لم يكن يريد. وقد حذره ربه من مغبة ذلك: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى. وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه: ١٣١، ١٣٢).

وفي النهاية، نستطيع أن نقول: إن محمدًا، النبي الإنسان، والكائن البشري، كان بإيمانه العميق بالرسالة التي بعثه الله بها، من أعظم الشخصيات في تاريخ الإنسانية. تلك حقيقة لا شك فيها، وإنني لأؤكدها وأشدد عليها؛ لأنني مؤمنة به.

لم يكن محمد (ﷺ) رسولاً مبلغًا ديانة

كان الرباط الذي يجمع أبناء القبيلة الواحدة قويًا يستحيل التخلي عنه، وكان التضامن بين أبناء القبيلة يؤدي إلى أن يعتبر العدوان على أحدهم عدوانًا على القبيلة كلها



التوحيد فحسب، وإنما كان أيضًا مرشدًا إلى الأخلاق السامية. كان ينتصر للضعيف على القوي، وللفقير على الغني، ويحمي المعدمين، وينبه الناس إلى أن العاقبة للمتقين في حياة النعيم الخالدة.

وفي الفصل الثاني إلى الفصل الثالث الذي يحمل عنوان "الوحي مصدر الشريعة" تقول الكاتبة في بداية الفصل: كلمة قرآن مشتقة من الكلمة العربية "قرأ"، وتعني التلاوة أو القراءة، ويسمى أيضًا "الكتاب". و"المصحف" هو ذلك المجلد الذي يحتوي على صفحاته المكتوبة. وهناك العديد من الأسماء والأوصاف التي تطلق على القرآن الكريم، نذكر منها الفرقان والهدى.

إن القرآن هو المصدر الأساس للشريعة الإسلامية. فهو ذلك الكتاب الذي يحتوي على الأحكام والأخبار المتعلقة بالدين. الذي أنزله الله نصًا على محمد بالوحي – وهو كبير الملائكة جبريل – ليبلغه للناس كافة: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ

اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ. وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ (البقرة: ٩٧ - ٩٩).

وهو نموذج أصيل لكتاب مكنون عند الله في مكان مكين: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة: ٧٥ - ٨٠).

والقرآن غير قابل للتحريف، بمعنى أن محاولات تزييف حقيقته تبوء بالفشل، فلا يكون لها الانتشار. وإنما يكون السواد الأعظم لنصه الأصيل كاملاً محفوظًا بأمر الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ونصوصه تعبر عن أسمى مراتب البلاغة والحكمة: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤).

إن عجز الناس عن تأليف مثل القرآن الكريم أو تحريفه هو المعجزة الكبرى التي تدل على صدق النبوة، وأن القرآن قد نزل من عند الله، وليس من تأليف بشر. ويظل القرآن إلى يوم القيامة محفوظًا بأمر الله، ولم نسمع إلى اليوم عن كتاب ألفه بشر يضاهي القرآن حكمة وبلاغة.

إنه وحي وبلاغ من عند الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس: ١٥).

أما السنة النبوية، فهي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية بعد القرآن الكريم. فهي تعني الأقوال والأفعال والمواقف المنسوبة إلى النبي، بوصفه رسولاً يتلقى الوحي: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم: ١-٣).

ويخرج منها ما ثبت أنه سلوك أو رأي شخصي لا علاقة له بالدين. والسنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم. والسنة شارحة للقرآن في المسائل التي جاءت فيه مجملة. كالأمر بالصلاة. فالسنة هي التي بينت عدد ركعاتها. وأوقاتها. وعندما يبدو القرآن في سكوت عن مسألة معينة. يجب الرجوع بشأنها إلى السنة؛ لأنها مصدر أساس للتشريع الإسلامي. ومن ثم فإن السنة النبوية تتكون من أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته. وموافقته على آراء أو أفعال صادرة عن الآخرين.

وتستمد السنة النبوية قوتها الإلزامية من القرآن الكريم:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩). ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠).

أما الفصل الرابع فيتحدث عن: "الاجتهاد مصدر للأحكام".

وتقول المؤلفة: إن مفهوم الشريعة الإسلامية يختلف عن مفهومنا المعاصر للقانون، ذلك أن

• HASSAD EL FIKR • العدد (226) ربيع الأول 1432 هـ • فبراير 2011 م

الله في الإسلام هو الذي يشرع الأحكام الشرعية، من عبادات ومعاملات وقواعد حاكمة لسلوك الإنسان وعلاقته مع الله، ومع نفسه. ومع غيره من الناس، ومجموع هذه الأحكام يسمى الشريعة، والعلم الذي يدرس هذه القواعد ويفسرها ويحدد طرق تطبيقها يسمى الفقه الإسلامي. والفقه يجتهد للبحث عن حكم أية مسألة في القرآن أولاً، ثم إن لم يجد حلاً مباشراً فيه يبحث في السنة، فإن لم يجد فالاجتهاد ليصل إلى حكم في المسألة يحقق مصلحة الناس والمجتمع. وهذا الحكم يكون شرعيًا، وقد تختلف آراء العلماء فيكون في ذلك توسعة على الناس. وعلى الحاكم أن يختار ما هو مناسب للتطبيق من بينها. ومن هنا يجب علينا التعرف على تلك المصادر الاجتهادية.

عقيدة المسلم وأخلاقه

وعن عقيدة المسلم وأخلاقه يحدثنا الفصل الخامس فتقول المؤلفة: يوجه الإسلام دعوة إلى الإنسان بأن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله (ﷺ)، هذه هي عقيدة المؤمن التي تؤكدها آيات القرآن الكريم. ومنها على سبيل المثال أمر الله الموجه إلى النبي والمؤمنين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص. وآياتها أربع، وهناك أمور عديدة لا بد أن تتوافر في المسلم، وهي:

الصفات الإلهية

لا يكفي الإيمان بوجود الله، ولكن لا بد أيضًا من تنزيهه والتسليم له بكافة الصفات الحميدة. فهو خالق كل شيء، السموات والأرض، الحياة والموت.

الإسلام والتسليم لله

والإنسان بطبيعته متمرد شكاك، ونزواته تبعده عن طريق الله؛ لذا فيجب عليه أن ينتصر على نفسه ويسلم أمره لله الذي يهديه إلى الصراط المستقيم. وإلى هذا المعنى تشير كلمة الإسلام.

وهنا تطفو مشكلة: هل الإنسان مسيّر أم مخير؟

الأنبياء والرسل

يجب على المسلم أن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل. منذ خلق الكون وحتى محمد (ﷺ)، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين. ولن يبعث الله نبيًا ولا رسولاً بعده.

الكتب المقدسة

أنزل الله على الأنبياء كتبًا مقدسة. من أهمها التوراة والزبور والإنجيل والقرآن الكريم، وأنزلت هذه الكتب بالترتيب على كل من موسى وداود وعيسى ومحمد (عليهم الصلاة والسلام).

والقرآن الكريم الذي يحمل كل ما أراد الله أن يحفظه من الشرائع السابقة هو كتاب كامل، وناسخ لما قبله من شرائع، ومتمم ومصحح لما في علم الناس عن الكتب المقدسة المسيحية واليهودية التي عجز الناس عن حفظ أصولها.

الملائكة والشياطين

يجب على المسلم أن يؤمن بوجود الملائكة، وهي مخلوقات لها طبيعة خاصة وقدرات فائقة،

لا يراها الأشخاص العاديون، وقد خلقها الله لتكون في خدمته مباشرة، تطيع أوامره، فتكتب أعمال الناس من خير وشر، وتنزل بما يقدر الله لهم من جزاءات. كما أن منهم من يرسله الله إلى الأنبياء والرسل، ومنهم من هو موكل بالموت وقبض الأرواح.

الموت والقبر

الاعتقاد في خلود الروح جزء من الإيمان. فلحظة الموت تأتي بأمر من الله موجهة إلى ملك الموت بأن يخرج الروح من جسد الحي.

أما الأنبياء والشهداء فإنهم يمضون بعد الموت مباشرة إلى الجنة: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

أما الميت من غير هؤلاء. فيحاسب بعد الدفن حساب القبر، فيسأله الملكان "ناكر ونكير" عن إيمانه وأعماله، تلك هي فتنة القبر، إن اجتازها الإنسان فإن قبره يكون روضة من رياض الجنة، وإن فشل فيحق عليه عذاب القبر إلى يوم البعث. وتسمى حياة القبر التي تكون بين الموت والبعث بحياة البرزخ. ولذلك يجب التنبيه إلى أن العبادات في الدنيا وصالح الأعمال مع الإيمان تمثل منهجًا يهدف إلى ترسيخ الإيمان.

والاستغفار والتوبة وشهادة الإسلام تقبل وتنجي الإنسان قبل حضور الموت؛ لأن التسليم لله بالإيمان أثناء قبض الروح لا يكون بناءً على الاختيار الحر، وإنما هو استسلام لواقع يراه الإنسان عند الموت والبعث.

ويسبق يوم القيامة مجموعة من الفتن والكوارث من مختلف الأنواع، وتسمى أشراط الساعة، أي علاماتها، من حروب وفتن وظهور قوم يأجوج ومأجوج، والمسيح الدجال، ثم عودة المسيح ابن مريم يدعو إلى ما دعى إليه الإسلام، ويقضي على الدجال وأتباعه:

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: "اطَّلَعَ النَّبِيُّ (ﷺ) عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ. فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ. فَذَكَرَ: الدُّخَانَ - وَالدَّجَّالَ - وَالدَّابَّةَ - وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا - وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ - وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ - وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ"

(مسلم. الفتن وأشراط الساعة ٥١٦٢ . أبو داود، الملاحم ٣٧٥٧ . أحمد. أول مسند المدنيين أجمعين ١٥٥٥٥).

المهدي المنتظر

لم يذكر القرآن الكريم ذلك المهدي المنتظر، والأحاديث فيه ضعيفة. ولكنه اسم أو صفة لرجل يملأ الأرض عدلاً، ويظهر قبل المسيح لكي يدعو إلى الإيمان وينشر العدل والرحمة بعدما تكون الدنيا قد ملئت ظلمًا وجورًا.

الجنة والنار

إن الجنة والنار موصوفتان في القرآن الكريم بطريقة واقعية للغاية. والأولى بصورة خاصة تعزز هجمات من يرى في الإسلام دينًا مبتدعًا من محمد (ﷺ) ابتداعًا لأغراض شديدة التحديد، وهي أغراض السياسة والسلطة.

العبادات والحكمة من ممارستها

أما الفصل السادس فيتحدث عن "العبادات وممارستها والحكمة منها".

تقول المؤلفة: يمكنني أن أشير إلى ما أفهمه أو أشعر به من الآثار التي تعكسها العبادات على نفس الإنسان وعاداته. فجميع العبادات تعبر عن معاني الحمد من المسلمين إلى ربهم، وكذلك هي شكر على النعم التي أنعم الله بها عليهم.

الصلاة: عندما نسمع الأذان للصلاة من فوق منابر المسجد تحس النفس مشاعر عميقة حتى عند غير المؤمن، وهو يجعل الكائن البشري يتذكر خالقه. وبدء الصلاة بحمد الله ونهايتها بتحيته يجعل المؤمنين يحسون بوجوده إحساسًا ملموسًا، والخشوع بوضع الجبين على الأرض يجعلهم يعبرون عن الخضوع لإرادته.

والطابع الانضباطي للحركات التي ترافق الكلمات في الصلاة تمنع المصلي من أن يشرد بذهنه في أمور الدنيا.

والوجه الموجه إلى مكة هدفه التوجه إلى مركز مقدس يستطيع المؤمنون أن يركزوا فيه فكرهم، وقد آخت بينهم عبادة الله، آملين الحج إليه.

والقرآن الكريم يعلي من شأن الصلاة بوصفها وسيلة لسمو الروح وطهارة الجسد: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

وحتى تصح الصلاة لا بد من توافر النية ونظافة الجسم عن طريق الوضوء، ونظافة الملبس والمكان الذي تقام فيه الصلاة. وكل هذا بالطبع في حدود الممكن والمتاح؛ لأن الإسلام لا يطلب مطلقًا من المؤمنين به ما يتجاوز قدراتهم العادية. والنظافة الخارجية ليست ضرورية فقط كدليل على احترام الذات الإلهية، وإنما تدل أيضًا على نقاء القلب والروح.

الصوم: الصوم مدرسة للتحكم الذاتي. فهو يعلم المؤمن كيف يتحكم في غرائزه ونزواته. ويجعله يعاني الجوع والعطش ليساعده على تفهم أحوال الفقراء والمساكين. وليحثه على مساعدتهم بوازع من نفسه وبتلقائية عملية فعالة، وذلك يجعله أكثر شكرًا للنعم التي يملكها وأكثر عرفانًا لله عليها. إذًا فالصوم يوقظ المشاعر الاجتماعية لدى القادرين، وفي تلك الفترة يتم جمع الصدقات للفقراء، وقبل العيد مباشرة يخرج الصائمون زكاة الفطر، وتشهد فترة الصيام أيضًا الامتناع عن فحش الحديث والتلاعن وجميع الأفعال السيئة والمشينة. وهناك حكمة تؤكد هذا: "الصيام عن فعل المنكر أهم من فعل المعروف".

الحج: يهدف هو أيضًا إلى تطهير الروح؛ فقبل الذهاب إلى الكعبة المشرفة بمكة لا بد من عمل الآتي: الاستغفار بصدق عن الذنوب التي تم ارتكابها، وعقد العزم على استقبال حياة طاهرة بلا دنس ولا ذنوب، وأن يراعي الحاج الله والناس، حتى بعد تمام الحج، وسداد الديون والأعباء والالتزامات الأخرى؛ لأن المدين يعتبر من غير القادرين على الحج حتى يسدد ديونه.

وذلك المبدأ يبعد الحج عن أن يكون مسوغًا لاستغلال الناس أو الإعراض عن الوفاء بحقوقهم. وعلى الذي ينوي الحج أن يصلح من شأن نفسه ويحسن علاقاته بذوي رحمه. ويوفر ما يسد احتياجات أسرته وجميع من يشملهم برعايته وحمايته حتى تاريخ عودته المحتملة.

ويهدف الحج إلى إزالة الفوارق بين الغني والفقير، بين القوي والضعيف؛ لأن الجميع يرتدون نفس اللباس البسيط، وينزع الجميع زينتهم، ويركز الجميع فكرهم في ربهم، بالتضرع والخشوع، طلبًا لعفوه، وطمعًا في رحمته، كما أنه لا يمكن إنكار أن لقاء المسلمين القادمين من كل حدب وصوب يقوي روابط الأخوة فيما بينهم، ويزيل أوهام التميز العرقي التي ابتدعها الإنسان، وهي من الخطايا التي يساعد هذا اللقاء السنوي الجماعي على محوها.

الزكاة: توصي الأديان جميعًا بالصدقات، ولكن الإسلام وحده هو الذي فرض إلى جانبه زكاة ملزمة للجميع. وبأداء هذه الفريضة يربي المؤمن في نفسه حاسة الإنسانية، ويطهر نفسه من الشح، ومن خلال هذا التعبير الملموس عن البر والإحسان يعطيها الأمل في الثواب الإلهي. وبالإضافة إلى هذا. فإن الزكاة تهدف إلى تقليص الفوارق الاجتماعية والطبقية، وتزيد الحب المتبادل بين البشر.

ثم تنتقل بنا المؤلفة إلى الفصل الفصل السابع الذي يحمل عنوان: "اليهود والمسيحيون في الإسلام".

تقول الكاتبة: اليهود يعتبرون أنفسهم أكثر شعوب الأرض ثباتًا على دينهم ومبادئهم وعاداتهم وتقاليدهم، ويعتقدون فكرة أنهم "شعب الله المختار"، وما تعرض له اليهود طوال تاريخهم ولآلاف السنين، من مطاردات، وما تبعها من تشتت، لم يغير بأدنى قدر من فكرهم وطريقة حياتهم.

وفي عالم اليوم، نجد منهم العلماء والسياسيين الموجودين في كواليس الدول المهمة، ويديرون فيها التوجهات الاقتصادية والخيارات السياسية، وهم سحرة الأوساط المالية الدولية.

ويذكر القرآن الكريم دائمًا خيانة اليهود ونفاقهم - وقد دفعني قدري إلى التجوال في جميع الدول العربية تقريبًا. فلم ألحظ أبدًا أية ممارسات معادية للسامية. واليوم، كثير من الأحداث تجري دون مبرر مفهوم، مثل الظلم المستمر من الصهاينة ضد الفلسطينيين، وحركة الأصولية الإسلامية، والقتل والدمار الذي ألحقته الجيوش الإسرائيلية بالمدن الفلسطينية، وعلى وجه الخصوص في مدينة غزة، وما استتبع ذلك من مظاهرات ضد الصهيونية في الدول العربية، وفي أغلب عواصم العالم.

خلال هذا التاريخ الطويل من التعايش بين المسلمين واليهود، الذي كان سلميًا منسجمًا في كثير من البلاد والأحوال، يمكن للحوار الإسلامي اليهودي أن يعود من جديد إذا تلاشت الظروف التي أدت إلى الأزمة الحالية، وذلك يتطلب جهودًا كبيرة، خاصة من الجانب اليهودي ومن القوى الكبرى في العالم.

وتنتقل المؤلفة إلى جزء آخر من هذا الفصل لتتحدث عن:

المسيحيون في القرآن والسيرة النبوية

المسيحيون مثل اليهود في نظر المسلمين؛ لأنهم حادوا عن طريق الدين الأصلي الصحيح، الذي نزلت شريعة الإسلام لتصحيحه.

ولكن مواقف المسيحيين في القرآن الكريم مختلفة عن مواقف اليهود، وإن كان القرآن ينذر كل من لم يعتنق الإسلام بعدما علم به بأن مصيره إلى نار جهنم خالدًا فيها. غير أن أتباع المسيح لم يوصموا بالخبث والخيانة والنفاق: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢).

وفضلاً عن هذا. وكما رأينا عند الحديث عن حياة محمد (ﷺ) كان أول من تعرف على سمات النبوة في الرسول وهو صغير في رحلة إلى الشام، ذلك الراهب المسيحي بحيرا. وبحيرا هذا هو خال خديجة، وكان مسيحيًا طبقًا لرأي البعض، وكان هو الذي أوصى ابنة أخته بالزواج من النبي.

ولقد كسب المسلمون غزوة الخندق، بعون الله دون أدنى شك، والسبب في ذلك مشورة سلمان الفارسي الذي كان على المسيحية، ثم أسلم بعد أن رأى خاتم النبوة بين كتفي محمد. وكان سلمان هو من أشار بحفر خندق حول المدينة للدفاع عنها.

التصوف وطرقه

وتنتقل الكاتبة للفصل الثامن من الكتاب، الذي يحمل عنوان "التصوف وطرقه". سوف نعرض بكلمات قليلة جدًا موضوعات يمكنها أن تشغل كتبًا كاملة في غير هذا المقام. ومن أهم هذه الموضوعات الطرق الصوفية التي نشأت في نظر البعض بسبب الاستعداد الطبيعي للنفس البشرية، وتطور النزعة التأملية لدى المسلمين. كما أن من المفكرين من أرجع نشأة الطرق الصوفية إلى عوامل خارجية وتأثيرات من المسيحية وديانات أخرى.

وعلى أية حال، فإن الطرق الصوفية أدت إلى رسوخ اعتقاد في تصور ذي وجهين لدى الناس في المجتمعات التي انتشرت فيها:

الوجه الأول: هو الإيمان بأن الالتزام الدقيق بشريعة الله فيه الكفاية لسلامة المجتمع - أفرادًا وجماعات - ونجاته من شرور الدنيا وآفاتها. وليس مطلوبًا من الناس سوى التدقيق في سلوكهم ومعاملاتهم لتكون موافقة للشريعة الإسلامية.

الوجه الثاني: هو الإيمان بأن العبادات لا تتوقف عند مظاهرها الخارجية المتمثلة في أداء فروض الصلاة والصيام وغير ذلك. وإنما تقوم بالأساس على جوهر روحاني هام، الا وهو تكثيف حب الله وترسيخه في النفس البشرية.

الجهاد في الإسلام

وفي الفصل التاسع تتحدث المؤلفة عن "الجهاد في الإسلام ومفهومه"، فتقول: ندرك

بعد التأمل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن الجهاد الإسلامي ليس هو ذلك الذي يجري بالسلاح فحسب. وإنما في الحقيقة له معانٍ واتجاهات وأوجه مختلفة. إن كلمة "جهاد" اتخذتها الترجمات من العربية إلى اللغات الأوروبية مقابلاً لمصطلح "الحرب المقدسة"، ولكن "جهاد" في اللغة العربية كلمة مشتقة من فعل "جاهد"، ويعني: بذل جهدًا. وقد استخدم القرآن الكريم هذا الفعل في مواضع قليلة. بينما استخدم فعل "قاتل" الذي يشير مباشرة إلى الجهاد المسلح في مواضع كثيرة. ولكن قصر فهم الجهاد على أنه دائمًا عمل مسلح هو مسألة فيها تضييق لفهم القرآن والسنة فهمًا صحيحًا؛ لأنهما جاءا بمعاني الجهاد الأبيض.

أ) أثناء الفترة التي عاش فيها النبي (ﷺ) في مكة، كان يجاهد الكفار أو المشركين بالجدال والحجة دون أي صدام بالعنف والسلاح، بل العكس. فكان الكفار هم الذين يعاملونه ومن اتبعه بالعنف ويشهرون في وجههم السلاح. حتى كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم الثانية إلى المدينة. وكانت آيات القرآن الكريم تنزل عليه بالدعوة وبالموعظة وبالحجج التي ترغب في الإيمان وتحذر من الكفر وعواقبه.

ب) من أجل الانسجام الروحي والأخلاقي للإنسان. يعد مفهوم الجهاد شديد الأهمية، فالمؤمن يجاهد بقهر نزواته وميول الشر فيه، والتي يمكن أن تحيده عن "طريق الله".

هذا المعنى أكدته السنة الشريفة: عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: "أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله" (اخرجه الحافظ ابو نعيم والديلمي).

ج) وعلى القدر نفسه من الأهمية الجهاد بالدعوة. فهو جهاد مستمر يقوم به المؤمن لنشر الدين بالموعظة والنصح، وهو صورة من صور الجهاد غير الدموي: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

ذلك واجب كفائي على المؤمنين، يوجب عليهم اختيار نخبة فيها الكفاية والكفاءة لإيصال العلم بالإسلام واضحًا دون التباس إلى كافة الأمم. فإن قاموا بذلك الواجب على هذا النحو برئت ذمة الأمة بأدائه، وإن تقاعسوا لحق الإثم الجميع، عدا الأفراد الذين يبذلون قصارى جهدهم في الدعوة.

ومن خلال الدعوة، وليس الحرب المسلحة، دخل الإسلام أمم كثيرة، فصارت شعوبها مسلمة، في جزء كبير من شرق آسيا، مثل: أندونيسيا وماليزيا وآسيا الوسطى، مثل "أوزباكستان" و"كازاخستان" مناطق المغول. وكذلك التتر "تترستان"، والترك "تركيا"، والمناطق الغربية في الهند والصين وأجزاء من أفريقيا.

د) من يحارب الفساد يعتبر مجاهدًا في سبيل الله. ومن يحترم الأشهر الحرم فهو مجاهد بتوقفه عن الحرب امتثالاً لأمر الله. لقد فرض الأشهر الحرم لكي تكون هناك فسحة من الوقت تتيح الصلح بين أطراف الصراع، فإذا كانوا بصدد معركة قائمة بالفعل ثم دخل عليها شهر حرام، فوجبت الهدنة إجباريًا. أما إذا كانت الحرب لم تبدأ بعد، فيجب الحرص على الا

HASSAD EL FIKR • العدد (226) ربيع الأول 1432 هـ • فبراير 2011 م

تبدأ في هذه الأشهر. وهي: ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وشهر منفرد هو: رجب. والحكمة من تعيين رجب وهو غير متصل بالثلاثة الأوائل لا يعلمها إلا الله. والالتزام بحرمة هذه الأشهر يجب أن يكون متبادلاً، بمعنى أن يكون كل فريق مؤمنًا بحرمتها.

إذًا. فالإسلام لم يسمح للمسلمين بدفع العدو بالحرب فحسب، وإنما حث أولئك الذين يتعرضون للظلم على أن يحاربوا بالسلاح من يتسلط عليهم بظلمه. فأولئك يؤدون فريضة الجهاد، وإذا قتلوا فهم عند الله شهداء. إذًا، فمن الواضح بجلاء من هذه الآيات شرعية الحرب المسلحة كوسيلة للدفاع.

ولا يكون المسلمون خارجين على هذا المفهوم عند مبادرتهم بالهجوم على دولة تجهز إمكاناتها للاعتداء عليهم. وفي هذا الإطار كانت غزوة بدر، التي شاع في الغرب التعبير عنها بأنها كانت "غارة لقطع الطريق"، والغزوات الأخرى ضد الفرس والروم الذين كانوا دهاة في الحروب. فلم يكن من الحكمة أبدًا أن ينتظرهم المسلمون حتى يباغتوهم بهجمة لا قبل لهم بها.

والجهاد للدفاع عن النفس والمال والأهل، الذي نسميه بالدفاع الشرعي، مسموح به أيضًا للفرد طبقًا للحديث التالي:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ (رضي الله عنه) قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ: مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ" (الترمذي، الديات عن رسول الله ١٣٤١ . النسائي، تحريم الدم ٤٠٢٦).

وتقول المؤلفة في جزء من هذا الفصل: لا توجد حاليًا أمثلة على الجهاد - أو ما نسميه بالحروب المقدسة - بين دولة إسلامية ودولة أخرى، أو بين الدول الإسلامية نفسها. إن ما يوجد ليس إلا حركات فردية أو منظمات تسمى "إرهابية" تقوم - سواءً بحق أو دون وجه حق - بأعمال منتحلة اسم الجهاد.

أعمال منتحلة اسم الجهاد

وفي الفصل العاشر والأخير تشير المؤلفة إلى بعض الأعمال التي انتحلت صفة الجهاد في ظاهرها؛ ففي شهر إبريل عام ٢٠٠٢م، غزت إسرائيل الأراضي الفلسطينية، والزعيم "ياسر عرفات" - الرئيس المنتخب بالتصويت الحر من الشعب الفلسطيني - حبيس بمقره الرئاسي في "رام الله" مع المقربين منه وعائلاتهم، وفي ذلك خرق خطير للقانون، سواءً على المستوى الداخلي أو الدولي... الدمار والموت في كل مكان!

أمام هذه الأحداث المؤلمة وفي الأيام العصيبة، بدا لي أنه من الواجب إلقاء نظرة سريعة على المشكلة الفلسطينية في مجملها، مع توضيح الموقف الإسلامي من ذلك الصراع الذي يضع مسلمي فلسطين في مواجهة يهود إسرائيل.

إن اختزال الأحداث في هذه "العجالة" يجعلها تبدو ناقصة في بعض النقاط، لم أكن لأرويها لأولئك الذين يعيشونها. وإنما لأولئك الذين لا يعرفون عن العالم العربي ولا عن الإسلام شيئًا، أو يعرفونهما معرفة سطحية.

وفي النهاية، لا بد من ملاحظة أنني توقفت عند مصر من بين كل الدول العربية - بعد فلسطين بالطبع - لأن مصر هي أكثر البلاد مشاركةً في الأحداث التي تحيط بهذه المنطقة

من العالم وظروفها العصيبة.

وفي نهاية الفصل التاسع تستعرض الكاتبة بعض الأمور التي يطلق عليها مجازًا "جهاد".

المواقف الحالية

العمليات العسكرية عام ٢٠٠٢م

في بداية عام ٢٠٠٢م، اعترضت القوات البحرية الإسرائيلية في البحر المتوسط السفينة كارين التي كانت محملة بالسلاح، وقد حددت السلطات الإسرائيلية أن الشحنة كانت في طريقها إلى الفلسطينيين. فأرسلت على الفور إلى مقر الزعيم ياسر عرفات في رام الله الدبابات بهدف تحديد حركته. في البداية حظر عليه الخروج من المدينة، وبعد ذلك تم منعه من الخروج من مقره الرئاسي.

كنيسة الميلاد

في مدينة بيت لحم، كانت كنيسة المهد مسرحًا لأحداث عنف خطيرة. فقد لجأ إليها في الحقيقة مئتا فلسطيني، ليسوا جميعًا من المسلحين. وكان من بينهم عمدة المدينة والصيدلي وكثير من المدنيين. وفي دير الكابوتشي حوصر أسقف الكنيسة ونحو من أربعين رجلاً من رجال الدين وأربع راهبات، ولجأ أربعة صحفيين إيطاليين فرارًا من طلقات الإسرائيليين فيما كانوا يمرون في الطريق. والطخ الجنود الإسرائيليون تمثال مريم العذراء المنتصب في مدخل الكنيسة. وذكرت بعض مصادر المعلومات الغربية أن الذي احتجز رجال الدين المسيحي داخل الكنيسة كانوا هم الفلسطينيين اللاجئين، والبعض الآخر أرجع هذا إلى الإسرائيليين.

الصراع والاستشهاد

وبناءً على عمليات الإرهاب والعنف والدمار التي صدرت عن إسرائيل طوال عقود من الزمان، بدأ الفلسطينيون يردون بنفس العنف والدمار داخل الدولة العبرية، فأصبح الموت يأخذ أيضًا الإسرائيليين.

ومن المسلم به أن الصراع المسلح، في أي سياق كان وفي أي مجتمع تضعه الظروف في حرب، لا يسلم منه ضحايا أبرياء. إنها إذًا تبعات الحرب والمعارك. وذلك الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو بلا شك حرب، إنه صراع غير عادي وغير عادل وغير متوازن؛ فهو حرب بين شعب أعزل مجرد من السلاح أمام جيش مدجج بما لا نهاية له من العدة والعتاد، مجهز بأحدث الأسلحة وأكثرها فتكًا ودمارًا. إنها قصة قتال داود وجوليات التوراتية.

وإذا كان هناك من يطلق على الفلسطينيين الذين يقاتلون في هذه الحرب غير العادلة صفة "الإرهابيين"، وهي كلمة عربية تشير إلى بث الرهبة، ومن المعلوم أن الفلسطينيين يزرعون الرهبة فعلاً في نفوس أعدائهم الإسرائيليين، غير أن ما يجدر الإشارة إليه هو أن العرب لا يستخدمون ذلك المصطلح في وصف الفلسطينيين؛ لأن هؤلاء يقاومون عدوًا غاشمًا لا يرحمهم.

وتواصل إسرائيل - كما يشهد العالم الآن - طرد المقدسيين من منازلهم وأراضيهم لتستولي عليها ظلمًا وعدوانًا. ولا يصدها أحد عن التوسع في إنشاء المستوطنات الإسرائيلية الجديدة، في القدس وفي غيرها من المدن، على حساب الفلسطينيين العزل.

وبهذه الكلمات تختتم المستشرقة الإيطالية كتابها القيم. ■